

*تمهيد: (علم الإيقاع):

يعدّ الجانب الموسيقيّ من أهمّ الجوانب التي تميّز الإبداع الشعري وتلفت انتباه القارئ، فتجعله يقترب من هذه الموسيقى أو تلك فتشده دون غيرها من القصائد، فهي المغناطيس الذي يجذب المتلقّي للتفاعل مع القصيدة بالبعد الأول المتّصل بتقبّله للعمل ولإنشاد صوته، ذلك أنّ النّفس بطبيعتها تعشق النّغم والإيقاع... وحاجة هذه النّفس في بعض الأحيان إلى الموسيقى تشكّل أساساً للهدوء والاستقرار والشّعور بالارتياح¹. والموسيقى من الشّعور كنبضات القلب من الجسم تتغيّر إيقاعاته وفق الحالة النّفسية التي تتأثر بها².

ويمكننا الحديث عن جانبين للموسيقى في أيّ عمل شعريّ، هما: الموسيقى الخارجيّة والموسيقى الداخليّة، ويسمّيها آخرون موسيقى الإطار وموسيقى الحشو، يقول "محمد الهادي الطرابلسي": "وليس الوزن والقافية كلّ موسيقى الشّعور، فلشّعور ألوان من الموسيقى تعرض في حشوه، وشأن موسيقى الإطار تحتضن موسيقى الحشو في الشّعور شأن النّغمة الواحدة تؤلّف فيها الألحان المختلفة في موسيقى الغناء"³.

فالجانبان إذن متلاحمان متكافئان في إبراز موسيقى القصيدة الجميلة المؤثرة الجذّابة للمتلقّين، وتشمل الموسيقى الخارجيّة: الأوزان الشعريّة والقوافي والتّفعيلات وعددها وأثرها الموسيقيّ وجوانب أخرى كالتدوير مثلاً، أمّا الموسيقى "التي تنبعث من الحرف والكلمة والجملة" وتعنى بدراسة موسيقى النّفس التي تنبعث من صوت الحرف والكلمة والعلل والزّحافات، وهي موسيقى عميقة لا ضابط لها، تتفاعل مع الحرف في حركاته وجهره وصمته ومدّه، وتنبعث وفق حالة الشّاعر النّفسية فتتأثر بها⁴.

*01/ الإيقاع في النّقد القديم:

¹ جمال يونس: لغة الشّعور عند سميح القاسم، مؤسسة الثوري، دمشق، سوريا، (دط)، 1991، ص199.
² مصطفى محمود الحلوة: موسيقى الشّعور، (دن)، إربد، الأردن، (دط)، 1995، ص45.
³ محمد الهادي الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشّوقيات، منشورات الجامعة التونسية، (دط)، 1981، ص19.
⁴ مصطفى محمود الحلوة: موسيقى الشّعور، ص44.

ويتمثل في الوزن الذي يعدّ أبرز الخصائص الصوتية في الشعر العربي، فالشعر يؤثر في أذن المتلقي لأنّ ترتيب نغمات الموسيقى تألفه الأذن وتلذّ به، ولكن إذا فقدت الموسيقى التّناسب والتّساوي بين نغماتها كانت مدعاة للتّفور، وما الشعر إلّا ضرب من الموسيقى إلّا أنّه تزدوج نغماته بالدّلالة اللّغوية¹.

واختلف النّقاد حول علاقة الوزن بموضوع القصيدة، ومناسبة بعض الأوزان لبعض المعاني والأحوال النّفسيّة، فذهب البعض إلى القول: بصعوبة الرّبط بين البحر وموضوع القصيدة، ورأوا أنّ البحر الواحد قد كتبت به عدّة موضوعات مختلفة المعاني حتّى التّناقض دون أن يؤدّي ذلك إلى القصور في القصيدة، والابتعاد بها عن كونها عملاً فنّياً، فالوزن عندهم لا يعدو أن يكون ثوباً تلبسه المعاني أو إطار تصبّ فيه الأغراض².

ويرى فريق آخر -وعلى رأسهم "ابن طباطبا" العلوي- مناصرة قضية التّناسب بين الوزن وموضوع القصيدة، حين أشار إلى أنّ الشّاعر إذا أراد بناء قصيدة "مخّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعدّ له ما يلبسه إيّاه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه"³، وكذلك يعدّ "حازم القطاجني" من الدّارسين البارزين الذين أثاروا قضية مناسبة الوزن والإيقاع لموضوع القصيدة وذلك في كتابه ذائع الصّيت المعروف، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حين قال: "فإذا أراد الشّاعر الفخر حاكي بالأوزان الفخمة البهيّة الرضيّة، وإذا قصد في موضع قصدا هزلياً أو استخفافياً، وقصد تحقير شيء أو العبث به، حاكي بالأوزان الفخمة البهيّة الرضيّة، وقصد تحقير شيء أو العبث به، حاكي ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كلّ مقصد"⁴.

*02/ الإيقاع في النّقد الحديث:

¹ عشتار داود: الأسلوبية الشعرية قراءة في شعر محمود حسن إسماعيل، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط01، 2007، ص89.

² يوسف بكار: بناء القصيدة في النّقد العربيّ القديم (في ضوء النّقد الحديث)، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط02، 1982، ص218.

³ أحمد الشايب: أصول النّقد الأدبي، مطبعة النهضة المصرية، ط10، 1994، ص322-324.

⁴ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تق، تح: محمّد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط03، 1986، ص255.

ذهب النقاد المحدثون مذهب "حازم القرجاني" حين أقرّوا أنّ "المعاني المختلفة تفترض بحورا مختلفة، ولهذا يجب في صناعة الشعر اختيار البحر المناسب للمعنى المناسب...، حتّى أنّ تسمية البحور مشتقة من صفاتها طولاً أو انبساطاً أو خفة أو انسراحاً وسهولة أو اضطراباً"¹، فكلّ مبدع حالما يشرع في نسج القصيدة تكون لديه طائفة من الانفعالات التي تبحث عن تجسيد إيقاعي يوافقها.

والوزن حقيقة يساعد على خلق التوازن في النفس حيث يصبح أداة بواسطتها يمكن للشاعر السيطرة على عواطفه من خلال تجربته الثائرة المتوتّرة، ومن ثمّ يمكن للوزن أن يكتسب قيمته الجماليّة من خلال قدرته على خلق إيقاع عام للقصيدة، والحديث عن الوزن يجرنا عن الحديث على القافية التي تعدّ من أسس بناء القصيدة العربيّة وقد التزمت بها كلّ موجات التّجديد من القديم إلى الحديث دون استثناء، وتعرّف بكونها "الحروف التي تبدأ بمتحرّك قبل أوّل ساكنين في آخر البيت الشعري"².

وعرّفها "إبراهيم أنيس" بقوله: إنّها "عدّة أصوات تتكرّر في أواخر الأَشطر أو الأبيات من القصيدة وتكرّرها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعريّة، فهي بمثابة الفواصل الموسيقيّة يتوقّع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردّد الذي يطرق الأذان في فترات زمنيّة منتظمة، وبعد عدد معيّن من مقاطع ذات نظام خاص يسمّى الوزن"³.

وترتبط "القوافي بالعاملين الفيسيولوجي والنّفسي، ومن ثمّ فإنّ اختيار أماكنها واختيار أنسب الأصوات إيقاعاً لها أمر بالغ الخطورة، وينبغي أن يأتي هذا كلّ طواعيّة تبعاً لمقتضيات فنيّة أو نفسيّة خاصّة بعيداً عن الطّريقة الصّارمة التي جرى عليها الشعر العربيّ التقليدي"⁴.

¹ أدونيس علي أحمد سعيد: الشعرية العربيّة، ص26.

² ابن رشيق القيرواني: العمدة، تح: محمّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط05، 1981، ص151.

³ إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص246.

⁴ صابر عبد الدايم يونس: موسيقى الشعر بين الثّابت والتّطور، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط03، 1993، ص218.

ويؤكد "محمد الهادي الطّارلسي" أنّ: "ليس الوزن والقافيّة كلّ موسيقى الشّعر، فالشّعر ألوان من الموسيقى تعرض في حشوه وشأن موسيقى الإطار تحتضن موسيقى الحشو في الشّعر شأن النّعمة الواحدة تؤلّف منها الألحان المختلفة موسيقى الغناء"¹.

¹ محمد الهادي الطّارلسي: خصائص الأسلوب في التّوقيّات، ص63.